العودة إلى حلب

أطل عليها من الطائرة، أول مرة أغيب عنها، غبت أسبوعاً واحداً، حسبته دهراً، وأرجع إليها، تقترب الطائرة منها، أطل عليها من شاهق، أراها حمامة بيضاء، أول مرة أضمها كلها، أقبلها، أشمها، القلعة الشماء تتوسطها، والبيوت تلتف حولها، مثل عجوز التف من حولها أحفادها، وهي تحكي لهم الحكايات القديمة، تقترب الطائرة، تدنو منها، القلعة تزداد عظمة، المآذن تشمخ إلى الأعالي، والقباب تأتلق كالذهب، هذا هو الجامع الأموي، شاهد على الأمويين وخليفتهم الوليد بن عبد الملك، وهذا جبل الجوشن، يطل على الجنائن الخضر، حيث كانت تسرح خيول سيف الدولة الحمداني، وتلك هي الأسواق المسقوفة تمتد من باب أنطاكية إلى القلعة والمحلات فيها عامرة بالقصب والحرير والذهب، وهي تغص بالباعة والمشترين، مثل عروق تنبض بالدفء والحياة، وفي ظلالها الرطبة يمضي البحتري وابن خالويه والفارابي مسرعي الخطا إلى مجلس سيف الدولة، يمرون بسوق السقطية حيث يسطع عبق الكباب المشوي، ثم يجتازون سوق العطارين حيث تعبق

أشذاء البهارات والأفاويه وأشذاء صابون الغار والزعتر والماورد والصابون المطيب والحناء، هل ينعطفون ليستحموا في حمام النحاسين؟ يعترض البحتري قائلاً : لا، لا نريد التأخر عن المجلس، فقد سبقنا إليه من غير شك المتنبي وأبو فراس، ويهمس ابن خالويه في سره: أعرفك لا تحب الاستحمام، ولكن لا أعرف كيف أحبتك علوة، يستوقفهم الفارابي في سوق العبايات ليشتري عباءة، والبحتري يقول له: لو وفرت ثمنها، سيف الدولة سيهدينا من غير شك مع أول الشتاء واحدة، وهذا نهر قويق، على ضفتيه تمتد البساتين التي تغنّى بزهرها وشجرها وطيرها الشاعر الصنوبري، لقد اقتحمتها الآن البيوت والعمارات فأصبحت أحياء سكنية مزدحمة، تعج بالحياة، النهر أصبح مجرد ذكرى، غطته الأرصفة والحدائق والشوارع العريضة، ربما يمر به الجيل الجديد ولا يعرفه، فهم يقصدون الحديقة العامة ومتنزه السبيل، الحديقة العامة ليس لها مثيل في العالم كله، هكذا قال لي أبي مرة وهو يمسك بيدي ويمضي بي إلى الحديقة العامة، لا شك أن في العالم حدائق أكبر وأجمل وأكثر غنى واتساعاً وتنظيماً، ولكن ما أزال أرى الحديقة العامة في حلب هي الأجمل، في ظلال أشجارها الباسقة لعبت وأنا طفل، وعلى مقعدها في الربيع الدافئ قعدت إلى جوار من أحببت، وحول البركة في ليالي الصيف

القائظ تراكض أطفالي وهي تنثر عليهم رذاذ النافورة، وغداً على مقعدها الحجري في الخريف سأقعد مستمتعاً بدفء الشمس وبين يدي الجريدة مثل سائر العجائز، وقد أقعد إلى جانب عجوز شائخ مثلي ليحدثني عن بنيه وأحفاده، وهذه هي الأحياء الجديدةتنهض، هي مدن جديدة، حي الحمدانية وحده مدينة، وهو جدير باسمه، وهذا حي حلب الجديدة، هو وحده الآخر مدينة قائمة بذاتها، لا أكاد أصدق أن تمتد حلب وتتسع إلى هذا الحد، وأنا طفل آتي إلى متنزّه السبيل وكأنه في أقصى حلب وإذا هو اليوم في وسطها، من خمسمئة ألف نسمة إلى ثلاثة ملايين تقفز في خمسين عاماً، وهذا هو حي الشهباء الجديدة، أبنيته الحجرية البيضاء الجديدة فخمة، الفيلات فيه معرض حي لفن العمارة، الحجر مزخرف ومنحوت ومزركش كأنه طينة من عجين أبيض، زهور لا تصدق أنها من حجر تزين الواجهات والشرفات والأفاريز، وإذا كان العثمانيون قد أشادوا مساجد كبيرة تشهد على فن معماري متميز، كالعثمانية والعادلية والبهرمية والتكية تنهض شامخة بمآذنها وقبابها، لتشهد على عراقة الماضي فإن الأجيال الجديدة قد شادت مساجد جديدة أكثر جمالاً وأكثر بهاءً، هذا جامع الرحمن وذاك جامع التوحيد وهنالك جامع الغزالي وأبي حنيفة والعباس تنهض وفق

obeikandi.com

طرز أجمل وأوسع وأحدث، هي أكثر بهاء وفخامة، لتؤكد تطور الحياة وتطور فن العمارة والبناء، وهذا جامع التوحيد بمآذنه الأربع وقبابه الخمس ينهض كالقلعة الشامخة، تحيط به ثلاث كنائس جميلة كالعرائس، تؤكد وحدة الأديان ووحدة الشعب كما تؤكد روح المحبة والإخاء، الكنيسة تجاور المسجد، كصديقين متجاورين متماسكين يداً بيد يواجهان معاً الحياة، دورة أخرى والطائرة تدنو أكثر فأكثر، هذه هي الجامعة التي فيها تخرجت، بمبانيها الملتفة بعضها حول بعضها، متنوعة جميلة، وإلى جوارها تنهض المدينة الجامعية، بعماراتها العشرين، هنا الشباب صناع الغد، أي حلب؟ من منحك هذا الاسم؟ حقاً هو إبراهيم الخليل الذي كان يقود بقرته الشهباء إلى هضبتك ويسرع الناس إليه وهم ينادون معلنين:حلب الشهباء، حلب الشهباء، هي أسطورة رسخت في أعماقي وأنا طفل، أراك يا حلب كأني أرى وجه أمي أختي زوجتي ابنتي تبسمين لي تهللين تفتحين ذراعيك، كم أنت دافئة وجميلة وحنون، حتى المقابر المتألقة البياض، وأنا أطل عليها هنا في الشرق والجنوب، أحس بها وادعة هادئة تمنحني حس الأمان، كأنها الشيب الأبيض في رأسي، يشيب الكل، وتبقين أنت شابة، هنا مرقد آبائي والجدود، حتى القبور فيك يا حلب تبدو لي متميزة، إلى جوارها كروم الفستق الحلبي، وهي

تتقشر وتطقطق في ضوء القمر، آه يا مدينة القمر، وعرائش الفل والياسمين والورد، متى تحط بي الطائرة لأرى زوجتي وأولادي، متى أرجع إلى البيت لأرى الشرفة والنوافذ وباب الدار، ثم أنزل مساء إلى اتحاد الكتاب العرب لأستمع إلى محاضرة عن الشاعر عمر أبو ريشة أو إلى المركز الثقافي لأستمع إلى محاضرة عن خير الدين الأسدي ثم أمضي إلى المقهى لأجتمع مع الأصحاب، هناك في مقهى القلعة، أمام الأدراج سيكون لنا لقاء، لنقعد في ظل الجدة الحنون، تحت الأبراج الدافئة نرسل دخان النراجيل ونتذوق القهوة المرة، وصباح فخري يشدو لنا والأصداء تردد : «درب حلب ومشيته، كله شجر زيتوني» أهلاً بك يا حلب.

obeikandl.com